4 ـ **النفوذ اللغوي** : ان القرشيين لم يقفوا حجر عثرة في سبيل تقدم لغتهم بل عملوا على نموها ، فاضافوا اليها ، ما هي في مسيس الحاجة اليه ، وما رأوه اخف على اسماعهم ، وايسر على السنتهم .

فهذه العوامل قد هيات للقرشية سبيل الفوز والنجاح ومكنتها من ان تصبح لغة العرب جميعا ، وقد اكتسبت من هذا الصراع اموراً عظيمة ، هيات لها سبيل التقدم والرقي .

فانت ترى ان قريشا ، انفردت بعلو الكلمة ، وسمة الزعامة ، وسعة الجاه ، ووفرة السلطان وتمام النفوذ الروحي والاقتصادي بين العرب ، لما تواتى لهم من ثقافة وخبرة وحنكة .

والذى ورث من لغة الحميريين ليس كثير التمييز عن لغة قريش ، سواء في التصريف ام في الاعراب أم في الاسلوب ، بل ان اكثره ظاهر في اختلاف بعض الالفاظ عن بعض في الدلالة على المعاني المتحدة ، فلفظ « انطى » في لهجة الحميريين معناه « اعطى » عند القرشيين ، و « الكتع » عند الاولين هو « الدئب » عند الآخرين ، و «الشناتر» عند حمير هي: «الاصابع» عند قريش ، و«سامدون» في لغة حمير هي : «الغناء» في لهجة قريش ، الى غير ذلك مما تجد له نظيرا في لهجات مضر «كالسدفة» فهي «الظلمة» عند تميم و«الضوء» في لغة قريش .

ولما كان الخلاف بين الحميرية والقرشية غير متشعب، ذابت لغة الحميريين كسائر اللغات الاخرى في لغة قريش التي صارت ذات غلبة وسيادة على سائر اللغات وقد استفادت القرشية من صراعها مع اللهجات العربية الاخرى ، اموراً كثيرة اهمها :

1 ـ انها استفادت كثيرا من المفردات والاساليب ولاسيما التي كانت تنقصها فتنوعت فنون القول ، وتمكنت من التعبير عن جميع الاغراض ، التي كانت تنقصها ، وغنيت بالمترادف والمشترك والمتضاد ، وغيرها من الامور التي كانت كبيرة الاثر في نمو اللغة وسعتها .

2 ـ وانها صارت اللغة القومية للعرب جميعا، لان اللغات او اللهجات اذا تصارعت وكتب لاحداها الفوز ، اتجه الجميع الى التكلم بها ولذلك صارت اللهجة القرشية لغة الشعراء في اشعارهم والخطباء في خطبهم ، ويؤكد ذلك ان العرب على اختلاف قبائلهم ، ورد الينا شعرهم بلغة واحدة، الا في القليل النادر ، وهو الذى كان عليه الاعتماد في تعرف البقية من لهجاتهم .

وانت ترى بعد هذا الاعراب ان احتكاك اللهجات العربية ادى في نهاية الامر الى تزعم اللهجة القرشية وصرعها جميع اللهجات ، الا انه قد بقي لكل قبيل بعض الالفاظ التي كانوا يستعملونها في مخاطبتهم ، وفي النادر من اشعارهم والذى يرشدنا الى هذه البقية من اللهجات مصدران :

المصدر الاول :

القراءات التي رويت في القرءان الكريم عن ائمة القراء الموثوق بهم ، والذين نقلت الينا قراءاتهم من طرق ، لا يتسرب الشك اليها .

وقد روي عن ابي بن كعب ، قال : دخلت المسجد اصلي فدخل رجل فافتتح النحل فقرا ، فخالفني في القراءة ، فلما انفتل من صلاته قلت : من اقراك ؟ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم جاء رجل فقام يصلي ، فقرا وافتتح فخالفني وخالف صاحبي، فلما انفتل من صلاته ، قلت من اقراك ؟ قال رسول الله ، فدخل قلبي من الشك والتكذيب اشد مما كان في الجاهلية ، فاخذت بايديهما ، وانطلقت بهما الى النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقلت استقرىء هذين فاستقرأ احدهما ، وقال : احسنت ، فدخل قلبي من الشك والتكذيب اشد مما كنت في الجاهلية ، ثم استقرأ الآخر وقال : احسنت ، فدخل صدري من الشك والتكذيب اشد مما كنت في الجاهلية ، فضرب رسول الله صدري بيده ، وقال: اعيذك بالله يا ابي من الشك ، ثم قال : ان جبريل ـ عليه السلام ـ اتاني فقال : ان ربك ـ عز وجل ـ يأمرك ان تقرأ القرءان على حرف واحد ، فقلت : اللهم خفف عن امتي ، ثم عاد ، فقال : ان ربك ـ عز وجل ـ يأمرك ان تقرأ القرءان على حرفين ، فقلت : اللهم خفف عن امتي ، ثم عاد ، وقال : ان ربك ـ عز وجل ـ يأمرك ان تقرأ القرءان على سبعة احرف .

فهذا الحديث صريح في اجازة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ القراءات التي هي مصدر لاختلاف اللهجات .

والمصدر الثاني : ما رواه الثقات في كتب النحو والادب واللغة والتاريخ ، من آثار تلك اللهجات ،

ومما يذكر استطرادا بهذا الصدد ، ان الخلاف بين اللهجات متعدد النواحي ، متشعب الجهات ، فتارة يكون الخلاف ناشئا عن اختلاف الحروف واخرى من تباين الحركات ، وثالثة من اختلاف حركات الاعراب والبناء وآونة يتعلق بهيئة المنطق ، وبالنظر الى ما وصلنا من لهجات العرب يمكننا ان نحصر مظاهر اختلاف اللهجات فيما يلي :

1 ـ الابدال : ويشمل ابدال الحروف من الحروف والحركات من الحركات .

2 ـ التصحيح والاعلال .

3 ـ الاختلاف في الاعراب .

4 ـ التردد بين الاعراب والبناء .

5 ـ الزيادة والنقصان .

6 ـ الفك والادغام .

7 ـ هيئة النطق وهي تشمل الامالة والترقيق والتفخيم والاخفاء والاظهار .

8 ـ تقديم بعض حروف الكلمة على بعض ، وهو القلب المكاني .

8 ـ دلالة اللفظ على معنيين ، وهو المشترك والتضاد .

10 ـ دلالة عدة الفاظ على معنى واحد وهو المترادف .

ومما سبق بيانه ، يتضح ان قريشا كانت تحتكر التجارة الخارجية في شبه الجزيرة العربية وكانت تقطن مكة ، ومما لا يحتاج الى دليل ان مكة من الزمان القديم العاصمة الروحية للعرب ، اذ لا يكون هذا كافيا لان تتفوق لهجة قريش على غيرها من اللهجات آنذاك .

واذا كنا وصلنا الى هذا الحد من الكتابة عن اللهجات العربية ، وعرفنا آراء علماء العربية فيها ، فلا نرى مانعا من ذكر آراء كوكبة الاستشراق الذين ادلوا بآرائهم لمرضاة العلم في ذاته ، دون تعصب أو سطحية .

فالمستشرق « نولدكه » يرى : ان الفروق بين اللهجات في الاقسام الرئيسية من جزيرة العرب ، مثل الحجاز ونجد مناطق البادية المتاخمة للفرات ، لم تكن كبيرة ، وان اللهجة الفصحى مبنية على جميع هذه اللهجات .

ويعتقد العلامة « فويدي » : ان اللغة الفصحى هي مزيج من لهجات تكلم بها اهل نجد والمناطق المجاورة لها ، ولكنها ليست لهجة معينة لقبيلة معينة .

ويقول « نلينو » : ان اللغة الفصحى وهي لغة الشعر الجاهلي ، هي لغة القبائل التي اشتهرت بالبراعة في نظم القصيد ، والتي تردد اليها النحاة وعلماء اللغة في الاسلام ، ليتعلموا من اهلها صحة النطق بالحروف او المعاني الغريبة والشواهد لقواعد النحو ، وهي قبائل « معد » التي جمع ملوك «كندة» كلمتها قبل منتصف القرن الخامس للميلاد .

ويرى ان اللهجة الفصحى تولدت من احدى اللهجات النجدية، وتهذبت في مملكة كندة وفي ايامها، فصارت اللغة الادبية السائدة بين العرب . وذكر « فيشر » ان العربية الفصحى هي لهجة معينة . ولكن فيشر لم يعين اسم هذه اللهجة .

اما «هارتمن» و«نولرس» فخلاصة رايهما : ان العربية الفصحى هي لهجة اعراب نجد واليمامة ، غير ان الشعراء ادخلوا عليها تغييرات عديدة ، اما الاجزاء الباقية من الجزيرة ، فكانت تتكلم لهجات اخرى .

ومن راي « بروكلمن » و « ويتزشتاين » وآخرين : ان اللهجة العربية الفصحى لم يتكلم بها على الشكل الذي نعرفه . ولم يشرح « بروكلمن » علاقة هذه اللهجة ببقية اللهجات .

والعالم «لندبرج» يقول : « ان قواعد اللهجة العربية الفصحى ، من وضع الشعراء ، فمن شعرهم استخرجت القواعد ، ومن قصائدهم استنبطت . »

هذا مجمل آراء كوكبة من كواكب العلم والاستشراق والدراسات الواسعة ، ومع انها آراء تبدو مختلفة ، الا انها جميعها تعطي صورة صادقة لفصاحة القبائل العربية المنتشرة في طول الجزيرة العربية وعرضها .

ومما يدعو الى الانتباه ان العلماء لم يتفقوا على اول لاهج بالعربية ، ولكن باحثي اللغات افترقوا شيعا وطوائف ، حسب ما بدا لهم من اساسها الحدس والتخمين .